خمسة ايام على الاقدام

باحص — قرطبا — المغيري — مجدل العاقورة — العاقورة — اللقلوق — بلة — بيت الشاعر — شاتين — حوب — ارز تنورين — الحدث — الديمان — حصرون — بقرقاشا — بشرّي — الارز — ظهر القضيب — عيناتا — اليمونة — شليفه — بعلبك

بقلم فؤاد افرام البستاني

٢

أرز الرب

« . . . اشجارُ الربِّ أرزُ لبنانَ التي غرسها ».
(المزمور ١٠٣ : ١٦)

يقطع المسافر مناطق لبنان الشمالي ، غير عابئ بالمشقّات ، ولا مبالٍ بالمعاكسات ، تائقاً الى مشاهدة تلك الشجرات الخالدة ، التي طالما زيّنتها في مخيلته اقوال الكتاب والشعراء من صاحب المزامير الى احدث مؤلف ، فاصبح يراها من خلال اوصاف تقليدية اكتنفتها باطارٍ من الروعة والاعجاب ، واحاطتها بهالة من العظمة والقداسة . حتى اذا رقي هضبة بشراي لاهثاً ، وبدت له غابة الارز بقعةً خضراء مسودّة في سفح الجبل الاغبر ، شعر بشيء من الكآبة خالَه ناتجاً عن عدم التناسب بين تلك الاوصاف التقليدية وحقيقة الأرز . . . على انه لا يكاد يدخل ذاك الحمى المطمئنّ ، فتلقي عليه اغصان الأرز ظلّها الكثيف ، حتى يحسّ بروعة العظمة والجمال وقد هبطت عليه فامتلكت فؤاده ، وتسلّطت على جوارحه ، فحنى الرأس ، وخفض الصوت ، واستسلم لنوع من الرهبة الدينية اذ شعر انه حقيقة بين « اشجار الربّ أرز لبنان التي غرسها . . . » .

في مثل هذه المواطف ، دخلنا الحمى المقدّس . فجلنا بين ارزاته بكل سكون لا نكاد نطأ الثرى الّا برفق ، ولا نكاد نتكلم الّا همساً ، مشاركين في ذلك ، دون انتباه ، تلك الطبيعة الهادئة التي لا تحرّك اعاصيرها اغصان الأرز الّا بتؤدة ، ولا يحمل نسيمها ريح الأرز الّا بهبّات خفيفة تكتنف الانسان من حيث لا يشعر ، فتحيطه بجوّ لطيف من الرائحة الزكية . هذا فضلًا عن ان ما على الارض من مسلّات الأرز المتراكمة يكوّن طبقةً لينة يمشي عليها الزائر فلا يُسمع صوت خطواته.

في تلك العُزلة الهادئة ، ينطرح الانسان مغبوطاً كأنه وصل الى قمة امانيه ومطامعه ، فيغفل عن حاجاته المتعدّدة ، ويسلو احزانه المؤلمة ، ويرتفع من محيط البشرية الضيّق بما فيه من المنافسات والمشاحنات التافهة ، فينسى انه انسان ، ويودّ لو اتيح له الحياة والموت في تلك الظلال الوارفة ، فيردّد:

يا بني امي اذا حضرت ساعتي ، والطبّ اسلمني
فاحفروا في الارز مقبرتي ! وخذوا من ثلجه كفني !

* * *

بيدَ اننا لم نلبث ان استيقظنا من تلك الغفلة السعيدة على عياط المكاريَين وقد وصلا الى باب السور ، فلاقاهما ناطور الأرز يريد منعهما عن الدخول ، فارتفعت الاصوات ، وعدنا فجأةً الى المشاحنات التافهة في محيط البشرية الضيّق.

للأرز سور من الحجر يرقى الى عهد رستم باشا ، احد متصرّفي لبنان السابقين (١٨٧٣ – ١٨٨٣) أمر ببنائه على اثر ما كان من اقتطاع الاهلين حطب الارز دون شفقة ، وابتذالهم ارضه المقدّسة دون اعتبار . وعين له ثلاثة نواطير ليحرسوا الغابة من المعتدين ، فيمنعوا قطع الاغصان ، واشعال النار ، وادخال المواشي . وكان ان البطريرك الماروني اصدر امراً يقضي بمنع الزوّار عن اقتطاع الاغصان . كل ذلك حفظاً لتلك الشجرات الباقية من الاندثار.

ثم رأت بلدية بشري ، وهي المكلّفة السهر على الغابة ان تضاعف في طرق وقايتها ، فحظّرت على الناطور ان يسمح لأحد بنصب صيوان ضمن

السور ، وضربت جُعالة قدرها عشرة قروش على كل زائر . اما سبب الخلاف بين الناطور والمكاريين فكان انهما ارادا ادخال معدّات صيوانتنا الى الارز فأبى عليهما ذلك ، ولو لم يكن يعرفهما من بشرّي ، لقدت الطاقة وخيمة . . . هذا على قول الناطور .

وعبثاً كان يعقوب ، وهو كبير المكاريين ، يشرح له ان معنا امراً من رئيس الحكومة يبيح لنا نصب الصيوان داخل الارز . فلم يكن الناطور يفهم ذلك ، بل لم يكن ليقرّ بوجود رئيس الحكومة . فلم نرَ بدّاً من الانتقال الى محلّ الخلاف ، فخففنا من حدّة الناطور ، واوقفنا المكاريين اكراماً له . ثم اخرجنا الامر فأريناه اياه ، وقرأناه له ، وبذيله امضاء الشيخ بشاره الخوري رئيس الوزارة اذ ذاك . فلم يظهر مقتنعاً بذلك ، لأنه لا يعرف من سلطة عليه الّا سلطة المونسنيور . . .

— وايّ مونسنيور ؟

— المونسنيور كيروز فاذهبوا وقابلوه . فاذا سمح لكم بنصب الشادر نصبتموه . والا فلا معنى لكل هذه الاوامر . . .

— واين يكون حضرة المونسنيور الان ؟

— انه مدعوّ اليوم الى الغداء في محلّ لا يبعد اكثر من نصف ساعة . على انه قد يعود بعد الظهر الى اللوكندة ، قرب الارز .

وهكذا بقيت معدّاتنا ، وراء السور مع المكاريين ، نحو الساعتين . ولم نكد نستلّ منها الا بالجهد ما اكلناه عند الظهر . ونحو الساعة الثالثة ، اقبل الناطور قائلاً :

— قد يكون رجع المونسنيور . . .

فخففنا معه نفتش عن المونسنيور ، وكانت السماء تبغش فخفنا ان تعاودنا عاصفة الأمس . . . على اننا حظينا بحضرته واقفاً يناظر الفعلة المشتغلين بلوكندته الفخمة على مدخل الأرز . فاستقبلنا ببشاشة . وافهم الناطور اولاً : ان الشيخ بشاره خليل الخوري هو رئيس الوزارة اللبنانية . وثانياً : ان له الحقّ باصدار امر يقضي بنصب شادر داخل الارز . وثالثاً : انه ، اي الناطور ، اذا سمح

لنا بذلك لا يكون عليه ادنى مسؤولية ، بل بالعكس فانه يكون قام بواجبه. فسرّ الناطور ، وسُررنا ايضاً اذ رأيناه انقلب الى رجل لطيف يتفانى في خدمتنا وتوفير اساليب راحتنا...

وبعد ان نصبنا الصيوان تحت اغصان احد جبابرة الارز ، انتقلنا الى حول البركة ، وهي حديثة البناء. جُرّت اليها المياه من نبع على ثلاثة ارباع الساعة من الارز. فجلسنا نتجاذب الاحاديث مع بعض الزوّار من اهل بشرّي . وبمَ عسى ان يتحادث زائر الارز مع اهل بشرّي الّا ببشرّي والأرز !

وهكذا جلنا في بلاد بشرّاي ، مهد الطائفة المارونية ، على قول رينان ، من البلدة نفسها الى نبع قاديشا ، الى واديه المقدّس ، الى الحبساء والنسّاك والرهبان ، الى الارز الخالد . وفي كل ذلك تتوافر لدينا المعلومات التقليديّة ، يختلط تاريخها بالاساطير فتسمو به الى درجة عالية من التأثير والجمال...

– ألا تعرفون لماذا دُعي هذا النبع « قاديشا » ؟... فاسمعوا اذاً : كان في سالف الزمان نبعٌ صغير ، لا ماء سواه في كل هذه الجهات . وكان النبع لحاكم جبّار يبيع منه الماء للسكان بثمن فاحش . وكان هذا الحاكم ظالماً شديد الوطأة على الاهالي ، يمنع ماءه عمّن يشاء ، اذا خطر له ذلك . فكان الناس يجتنبون اذاه خوفاً من سطوته ، ومنعه ماءه عنهم . فحدث يوماً ان امرأة ارملة فقيرة كانت مارّةً من امام النبع ، ومعها ولدٌ صغير لم يكن لها غيره. فصاح الولد من العطش اذ رأى الماء يتسلسل . ولم يكن مع الارملة ما تدفع ثمن شربة وحيدها . فأبى الظالم ان يسقيه . وتابع الولد الصراخ ، والظالم لا يرحم ... فما كان من الارملة الا ان عمدت الى منديلها فاوقعته في الماء ثم انتشلته بسرعة ، ومرادها ان تعصره في فم وحيدها الظمآن. الا ان الظالم تناوله منها ، وعصره امامها تشفّياً وانتقاماً. عند ذلك فتحت صدرها الى السماء ، وصاحت من قلب جريح : « جازاك الله على ظلمك ... » ولم تتم كلامها حتى دفق الماء نهراً عظيماً من تلك الصخور ، وغدا مورداً سائغاً للجميع فازال كربتهم ، وسمّوه « قاديشا » اي المقدّس...

– والارز ؟ اتعلمون من غرسه ؟... هو الربّ نفسه كما تشهد المزامير...

ولهذا فهو مقدّس لا يدنسه احد الا أصيب بنازلة . ولا يزال اهل بشرّي وسكّان الجوار يكرّمونه في السادس من آب في كل سنة ، وهو عيد تجلي الرب . فيأتون اليه ، كبارًا وصغارًا ، ويقيمون فيه قداساً احتفالياً . وينصرفون بعد القدّاس الى اساليب اللهو والانبساط ، ولكن دون ان يخرجوا عن دائرة الادب احتراماً لهيبة المكان . وكانوا في ما سلف من الايام ، وتلك ايام الحشمة والحياء ، ينقسمون فرقتين فيقيم الرجال وحدهم ، والنساء وحدهنّ . وكان الكثيرون يصعدون ، بعد الغداء ، الى اشجار الارز فيجلسون على الاغصان ، الرجال وحدهم ، والنساء وحدهنّ ايضاً . حتى اذا قدم رجل فجلس على غصن النساء ، او تجرّأت امرأة فاتت الى غصن الرجال ، انقصف ذاك الغصن حالًا وهبط بمن عليه الى الحضيض . وهو غضب الرب كان يظهر سريعاً امام عيون الجميع . . .

ثم انتقلنا الى الجولان في الغابة ، وفيها نحو الاربعمائة جبار تراوح اعمارهم بين الثلاثة آلاف والمائتي سنة . اما شيوخ الجبابرة فاثنتا عشرة شجرة لا غير تحمل في جذوعها الضخمة تاريخ بلادنا منذ عهد الفينيقيين ، وتبقى على كرّ الايام مثال العظمة ورمز الخلود . وهناك اسماء بعض الزوّار من قدماء ومحدثين خلّدتها هذه الجذوع . وهناك ايضاً في مرتفع صغير ارزة تُعرف « بأرزة لامرتين » حُفر عليها اسمه واسم ابنته جوليا ، ولكن نقد التاريخ الحديث اظهر ان الشاعر لم يصل الى الارز بل كلّف احد اصدقائه حفر اسمه . على ان بلدية بشرّي احترمت التقليد ، وكأنها شاءت مكافأة لامرتين على توقه الى رؤية الارز ، فلمّعت على تلك الارزة صفيحة تحيي ذكرى الشاعر الكبير (الرسم ١٠) وكذلك وضعت في داخل الكنيسة الصغيرة صفيحتين رخاميتين لذكرى مرور الجنرال غورو ، والجنرال ڤيغان في تلك الغابة .

اليوم الرابع

القداس في كنيسة الارز – ضهر القضيب – الاخضار السريع – عيناتا – اليمّونة

قبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، قمنا على صوت يعقوب يدعونا ، وكنا قد طلبنا منه ايقاظنا في مثل ذاك الوقت . فاقمنا مسرعين ، وهرولنا الى حضور القدّاس الذي اقامه الاب مارغر في كنيسة الارز ، على مذبح كله

من خشب الارز ، تحيط به شماعد من اغصان الارز . ثم جمعنا امتعتنا على نور الاسيتلين ، وخرجنا من ذاك الحمى المقدّس تاركين فيه شيئاً من افئدتنا ، وفي افئدتنا اشياء من ذكره ، وسرنا في مراقي ضهر القضيب ، مسرعين كي ندرك القمّة قبل طلوع الشمس فنشاهد منظراً خلّاباً . ولم تزل نطوي هضبة بعد هضبة ، ونتسلّق قمة بعد اخرى ، وصوتا يعقوب ومزوّق يشقّان ذاك السكون بالحان الميجانا والتابا ، الى ان كاد الفجر يبيّض القمم ، ونحن على علوّ نحو الثلاثة آلاف متر ، فشعرنا بنسيم لطيف بارد خرق اجسامنا حتى العظام ، على الرغم من حرارة السير ، ففزع كل منّا الى سترته يتقي بها تلك القوارس . وما هو الّا القليل حتى وصلنا الى القمّة ، وهناك في بعض المطاوي لا يزال الثلج يقاوم حرارة الشمس ، وفي الاعالي ، حيطان من الحجر مبنية على شكل دوائر يتستر بها المكارون من لفحات الهواء ، فحللناها . وبعد ان داوينا البرد بالكونياك ، والجوع بطعام الصباح ، اقبلنا نمتّع الطرف ببزوغ الغزالة على تلك السهول المتتابعة شرقي ضهر القضيب ، وتلك الهضبات المتراجعة شيئاً فشيئاً في الابعاد التي كانت تحجبها عنا بعض الركام من الضباب المتثاقل . فترسل الشمس اولى أشعتها الكسلانة فتخترقها بضعف ، وتحوّل نتفها البيضاء الى قطرات لامعة كانت تتخايل لنا ، امام النور البعيد ، بالوان قوس قزح الزاهية .

وبعد ان استرحنا قليلًا اتجهنا نحو الجانب الثاني فبدت لنا مهاوٍ هائلة تتتابع من ضهر القضيب الى سهول عيناتا في انحدار يكاد يكون عمودياً . فاندفعنا فيها لا نلوي على شيء ، ولا ارادة لنا في العجلة او التؤدة ؛ لان قوة الثقل ، وحركة الهبوط المتواصل كانتا تدفعان بنا الى النزول ، ولا عون لنا سوى عصيّنا الضخمة نركزها في الارض ونستند اليها ، اذا ما اردنا الوقوف هنيهة . ولحسن الحظ لم يكن في تلك المنحدرات صخور ، ولا اشجار تعيقنا ، بل كلها حصىً بحجم البيضة كان يتدافع تحت اقدامنا فنندفع في اثره غير عابئين . الى ان قطعنا في ثلاثة ارباع الساعة جبلًا يلزم لصعوده اكثر من ثلاث ساعات . واذا بنا على نبع عيناتا البارد العذب .

وكان ذاك السقوط السريع قد أثّر في احذية البعض منّا ، فانصرفوا

يفتّشون في عيناتا عن اسكاف ، فوقعوا ، بعد العناء ، على رجل في طاحون القرية ، يطحن ، ويكيف ، ويبيع المأكولات ، فوجدوا عنده ما يحتاجون اليه . وفي عيناتا ثمينا مفرزة من الجند الافرنسي ، ترابط لمطاردة اشقياء الدناشة ، وكانت قد علمت مؤخرًا انهم اقتربوا من تلك الجهات .

وبعد سير طويل متعب في سهول تكاد تلتهب حرارة ، بعضها يسقيه نهر عيناتا فيزرع بانواع البطاطا والذرة الصفراء ، وبعضها لا يصل اليه الماء فيبقى اجرد قاحلًا ، اشرفنا على بحيرة اليمونة (الرسم ٣) . وكانت اكثر ينابيعها قد جفّت ، وانحسر الماء عن اطرافها ، متجمعاً في بقعة متوسّطة يبلغ عمقها ، في اوائل ايلول ، نحو الاثني عشر مترًا ؛ على انه لا تزال جوانبها ترشح الماء طول ايام السنة ، وقد سرنا نحو الكيلومتر على ضفتها الغربية والمياه تنبجس من تلك الحصى المتراكمة فتنساب ضعيفة تحت اقدامنا . وكلها صالحة للشرب تنصبّ في احواض صغيرة ، فيجتمع حولها دون ترتيب ولا نظام ، الرجال والنساء ، والجواميس ، والابقار ، والاغنام ، والماعز ، والبط ؛ يؤمّها كل ذاك الخلق للشرب ، ونقل الماء ، والاغتسال ، والتمرغ ، والسباحة ، لا فرق في ذلك بين الانسان والحيوان . . .

زرنا عند وصولنا حضرة المختار الحاج محمد علي شريف ، وكان يراقب فعلةً قائمين ببناء حاجز للمياه ، فاستقبلنا ببشاشة ، وحدّثنا عن نبع اليمونة الشهير ، الذي ينفجر كل سنة في عيد الاربعين شهيدًا فيُسمع له طلق شديد يتدفق على اثره الماء غزيرًا . ثم اخبرنا عن المشروع الجديد الرامي الى نقل مياه البحيرة في نفق تحت الجبل لريّ سهول بعلبك ، وما في تحقيقه من الصعوبات الناجمة عن الخوف من ان جرّ تلك المياه قد يضرّ بمياه نهر ابراهيم ، بعد ان ثبت عند الكثيرين ان نبعه من بركة اليمونه .

ثم تركنا الحاج محمد الى منبسط وارف الظلّ قريب من احد الينابيع ، فجلسنا فيه نعدّ الغداء . وما هي هنيهة حتى امتلأ المكان بالرجال يتأملوننا باعجاب ، وبالنساء يتغامزن باستغراب ، وبالحيوانات من بط ودجاج وغنم وكلاب ، ترقب ما تأكل من فضلات الطعام ، حتى ظننا ان لم يبقَ مخلوق في الضيعة

الّا قدم لاستقبالنا.

وعند العصر جرّب بعضنا الاستحمام في البحيرة فلم يقووا على احتمال ذاك الماء البارد. فخرجوا يرعدون، بينما كانت الشمس تدفع آخر اشعتها على اعالي القمم، فتبسط على البحيرة القائمة وسط هضبات تكتنفها فتحصرها من كل الجهات، ظلًا خفيفاً يرافقه نسيم عليل يداعب سطح الماء فيموّجه بلطف وتؤدة.

ونحو المساء حدث حادث كان في غاية الغرابة. وهو انّ سيارة وصلت حتى وقفت في تلك الساحة، وكانت من اولى السيّارات التي مرّت على الطريق المشتوقة حديثاً من بعلبك الى اليمونة. فتهافت عليها جميع من اجتمع حولنا، اذ كانت لهم سبباً جديداً للاستغراب، فتركونا منصرفين اليها. على ان هذا الاستغراب لم ينحصر باهل اليمونة بل تجاوزهم الينا، اذ علمنا ان في السيارة محافظ بعلبك، وضابط قلم الاستخبارات، وقد اتيا يطلبان من متاولة الضيعة اثني عشر شاباً يسيرون في مقدّمة العسكر فيدلونهم على مخابئ الدناديشة، وقد وردت الاخبار بانهم في جبال اليمونة. تلك ظروف زادت رحلتنا لذّة اذ وفّرت لها من اسباب المغامرات ما لم نكن نحلم به. وكانت النتيجة ان ذهب الاثنا عشر شاباً في الحال، ولم نلبث ان سمعنا طلقات الرصاص متقطعة ... وحوالي الساعة العاشرة في الليل رجع رجال اليمونة فأخبرنا احدهم، واسمه محمد، انهم ساروا في مقدّمة العساكر يفتّشون الجبال، حتى اشرفوا على موضع مجاور اسمه بيت مشيك. وكان الاشقياء الدناديشة قد احتلّوا مغاوره، فانتشبت المعركة بينهم وبين الجنود ... عند ذاك لم يعد من لزوم لرجال اليمونة، وهم عزل، فتركوا الموقعة وعادوا، قبل ان يعرفوا النتيجة.

اما نحن فصممنا النية على متابعة رحلتنا دون انتباه للاخطار. وما ذاك الا لاننا نعرف المبدأ القائل: ليس من امان اكيد في نقطة موبوءة الا بعد نشوب معركة فيها...

اليوم الخامس

اليمونة – شليفا – ايات – بعلبك – بيروت

وعلى هذا قمنا في الليل، فحضرنا القداس في الصيوان، وسرنا على جنوب

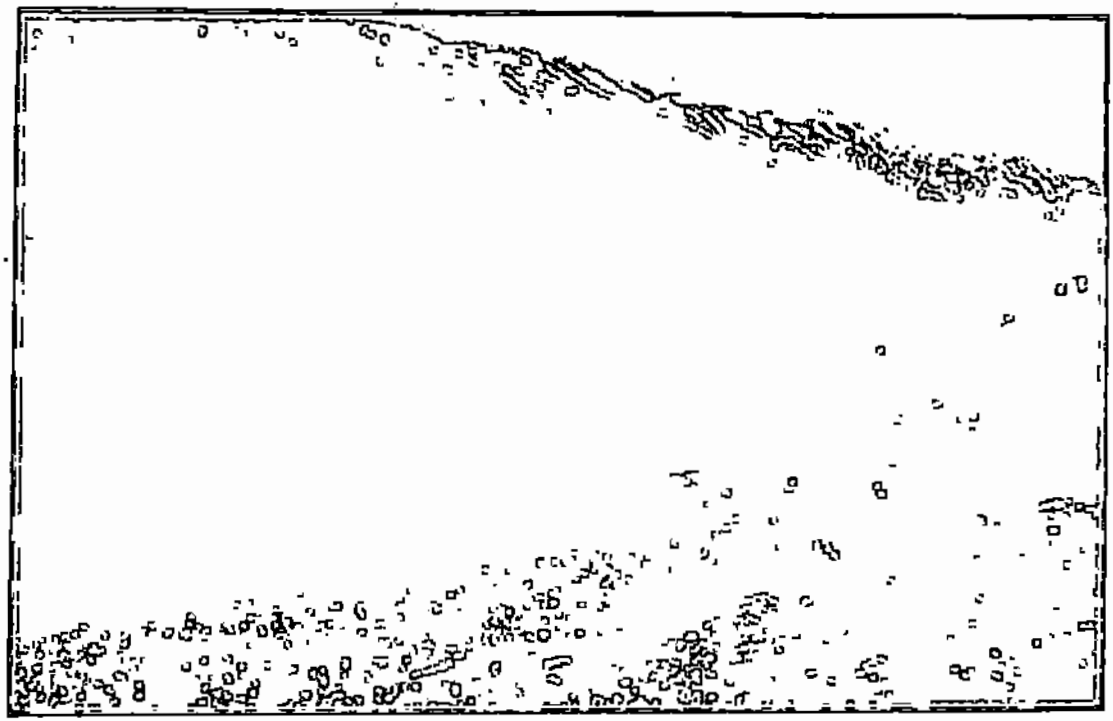

الرسم ٣: بحيرة البرنة

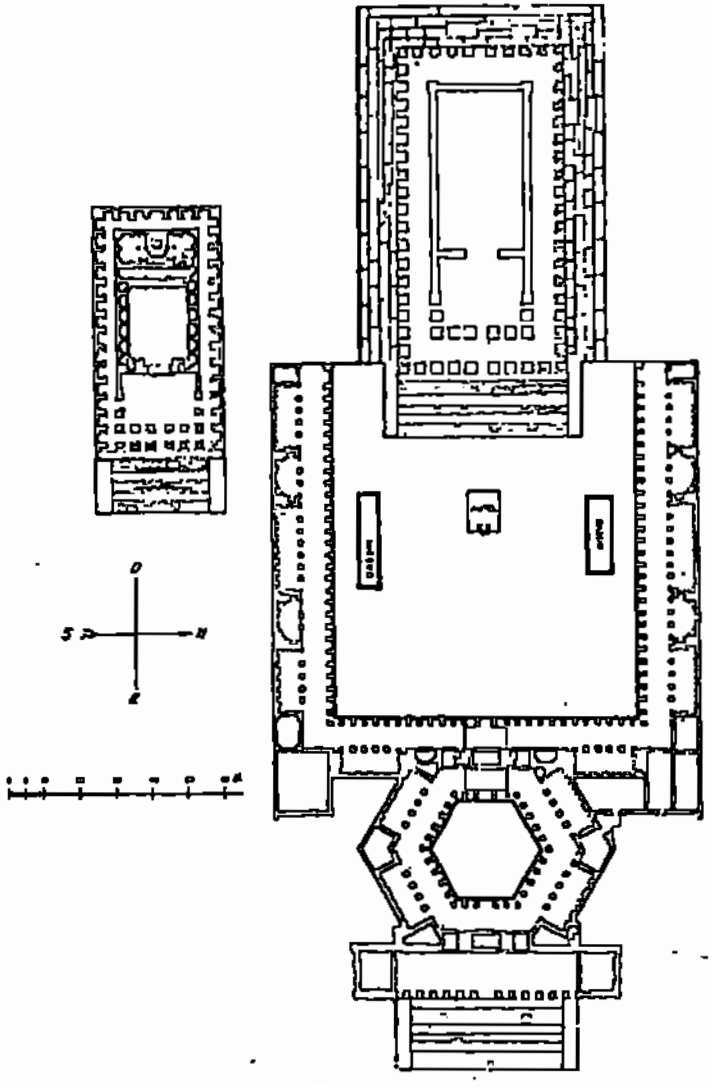

١ : الدرج الخارجي
٢ : الرواق
٣ : البهو المسدّس
٤ : البهو الكبير وفيه اقيمت الكنيسة البيزنطية
٥ : الهيكل الكبير او هيكل جوبيتر
٦ : الهيكل الصغير او هيكل باخوس

الرسم ٧ : رسم لمعالم بعلبك الرومانية (لم ترسم البناء البيزنطي ولا العربي)

الاستيلين نحو الساعة الثالثة ، فأشرفت علينا الشمس في مرتفعات الجبال المطلّة على سهل بعلبك . وكانت في الافق البعيد اعمدة الهيكل الضخمة تغالب الضباب ، فتصل صورتها الينا غامضة ملتبسة.

وكان من المقدّر علينا ان لا نذوق الماء العذب بعد بركة اليمونة ، ونحن لم نتعوّد ذلك ، فأمرّ فينا العطش الى ان وصلنا الى شليفا وهي اول قرية في سهل بعلبك ممّا يلي جبال اليمونة . ولما لم نرَ فيها ما يُشرب من الماء استعضنا بالعنب . ثم جمعنا ما بقي لنا من العزم الذي اوهنته تلك الرحلة ، فعزّزناه بامل الوصول القريب الى بعلبك ، آخر مرحلة في سفرتنا ، وقنا نجدّ السير في ذاك السهل الفسيح حتى ضجرنا من وحدة المناظر المتتابعة على سياق واحد ، وكدنا نهلك من شدّة الحرّ الثقيل الوطأة . وكان امامنا ستة عشر كيلومترًا الى بعلبك فقطعناها في ثلاث ساعات لم نستروح الا قليلًا في ابيات ، وهي قرية صغيرة أمّلنا ان نجد فيها ما يروي ظمأنا من الماء العذب ، فخاب املنا.

وما وصلنا الى بعلبك ، حتى انطرحنا في مدرسة حضرات الآباء البندكتيين ، على البلاط ، نرطّب جسومنا من ذاك الحرّ الشديد...

وقد وافق وصولنا الى بعلبك وصول شرذمة العسكر التي اشتبكت مع الدنادشة ، ومعها جاويش جريح وجنديان قتيلان ، كانوا ضحايا معركة الامس التي سمعنا رصاصها في اليمونة.

وبعد الغداء قادنا احد الآباء البندكتيين الكرام الى القلعة فصرفنا نحو الساعتين في تفقّد آثارها الخالدة ، ولا اطيل الوصف في ذلك بعد ان تقدّمني الكثيرون ، فلم يتركوا فيها جُلًّا ولا قلًّا الا عنّوا عهد بنائه ، والغاية من اقامته[1] ، فاكتفي بنشر رسم ابنيتها القديمة ، قبل ان دخلها العرب ، فخربوا الكثير من زخارف داخلها ليزيدوا خارجها قوةً وامتناعاً . (الرسم ٢)

وعند العصر ، ركبنا قطار بيروت التي استقبلتنا كما ودّعتنا بحرّها المذيب ، ورطوبتها الثقيلة...

---

١) ظهر في المشرق (٧ [١٩٠٤] ١٩٧ و ١٥٥) مقال طويل في وصف آثار بعلبك ، فليراجعه من شاء.